الفلسطيني منذ الثاني من تشرين الثاني ١٩١٧ ستبقى مفتوحة لمن يريد الاطلاع على رصيد المدنية. وهم يودون اليوم الانتهاء من تلك الورطة التي تفاقم أمرها . ولكن الفلسطيني لن ينفك قائما يوما بعد يوم يخط بلحمته بدمه وحيدا جليلا ، قاهرا . وسيقرؤها أناس عرب ويهود وغرباء . أما العرب فيقرؤونها كما تقرأ الكتب المقدسة . ويتعلم فيها اليهود ان اليهودية تنتهي حيث تبدأ الصهيونية . ويرى فيها الجميع علامة الفصل بين عالم ينكر وقد أفسده المال واستسلم الى المعاصي، وعالم قوي كالروح يؤكد وهو جالس فوق الرماد».

هذه الجملة الاخيرة تكاد تلخص كل الكتاب وتكاد تضعنا في المناخ الفكري العام الذي يتوجه المؤلف من خلاله الينا . والحقيقة ان حكمنا على هذا العمل الفريد من نوعه في المكتبة العربية لا يمكن الا ان يكون ايجابيا ، ان لم نقل مؤيدا ومشجعا . فبالرغم من بعض الاراء التي وردت في هذا الكتاب والتي يمكن ان تفسر ، اذا اخذت في غير محلها ودون تحليل دقيق لها ، وكأنها آراء مغرقة في المثالية والتجريد ، وبالرغم من بعض المواقف العنيفة ضد المدنية الصناعية والتي هي أقرب ما تكون الى الصوفية منها الى التحليل الموضوعي البارد ، بالرغم من كل هذا فان الكتاب يكشف عن انتاج عربي فكري حقيقي وعن مساهمة اكيدة في اغناء التراث النضالي العربي . وليس من الصعب على القارىء ان يكتشف ان المؤلف يبتعد ، عن سابق تصور وتصميم ، عن كل القضايا الاقتصادية والسياسية المباشرة ويهتم بشكل أساسي بالابعاد الفكرية والحضارية للانسان العربي المعاصر وينظر الى الصراع العربي الصهيوني من منظار تاريخي فوقي . من هنا جاءت المعالجة سليمة في خطوطها العريضة وفي تصوراتها للمستقبل وجاءت في المقابل ضعيفة في بعض التفاصيل الا ان هذه الثغرات لا تنتقص شيئا من قيمة الافكار المطروحة خاصة اذا حكمنا عليها من خلال الموقع الاجتماعي الذي يحتله هذا الكاهن الجريء . انه يطرح افكاره بدون مجاملة او خوف او تهرب وحتى بدون رابط ظاهري فتأتي كأنها انفجارات في وجه الظلم والاستغلال والمدنية اللاانسانية . بالاضافة الى كل هذا ، هناك الاسلوب الذي صيغت به هذه النظريات وهو أسلوب لا يهتم بالناحية الشكلية بقدر اهتمامه بتأدية المعاني والافكار . من هنا جاءت وسائل تعبيره صعبة وتتطلب الكثير من التركيز لتتبعها وتفهمها شأنها في ذلك شأن كل وسائل التعبير الفلسفية . واخيرا قد يكون من الظلم التركيز في هذا الكتاب على الفصل الذي يتحدث فيه المؤلف عن قضية فلسطين وحسب . فالكتاب في الحقيقة يطمح الى أبعد من ذلك . وكما يقول الاب سركيس فمعالجة كل القضايا التي يطرحها هذا الكتاب بصورة وافية ليست هي الهدف كما أنها ليست ممكنة . « فأن تلفت الانتباه الى وجود المشكلة ومعطياتها أهم وأنفع من أن تعرض روايتك وحلولك . **وهنا الفرق بين مهنة السياسة والفكر السياسي** . فالاولى تبسط وترتجل وتجازف . فيما يهتم الفكر بالدقائق ويدعو كل واحد الى النضوج والمساهمة » .

طبعا مهنة السياسة بعيدة كل البعد عن هذا الكتاب اما الفكر السياسي فهو جوهره وكل مضمونه . وهو على كل حال فكر سياسي مثالي — بالمعنى الايجابي للكلمة — يجمع بين ارفع مستويات الشجاعة الادبية وبين أعلى صرخات الاستنكار للاستغلال اللاحق بالانسانية سواء أكان هذا الاستغلال قائما على مؤسسات قمعية ام على ممارسات سياسية فاضحة كما يجري علنا فوق أرض فلسطين . وليس أدل على هذا الموقف من عنوان الكتاب نفسه « المآسي المعاصرة والمصير العربي » . فالمؤلف يكاد يلخص كل موقفه في هذه الجملة التي يختتم بها كلامه عن فلسطين : « وليس من باب الصدف ان تعاصر المأساة الفلسطينية ما تفخموا في تسميته بالمدنية . وليس من باب الصدف أن كانت المأساة الفلسطينية فاتحة مآسي هذا القرن وهي تتكاثر في كل بقعة من ارجاء الدنيا يشعر فيها شعوب بدهوتهم الى الحرية . وليس من باب الصدف ان تكون المأساة الفلسطينية بين مآسي هذا القرن هي التي يتهالكون في طمس رموزها المقدسة بمظاهر انسانية واكاذيب سلمية وذرائع قانونية » . ولحسن حظنا فان المؤلف ، رغم رؤيته النافذة لمآسي هذا العصر ، يمتاز ايضا بتفاؤل تاريخي وحدس عميق بأن انتصار الحرية في كل ارجاء العالم وبشكل اخص في فلسطين امر واقع لا محالة رغم كل الدلائل الظاهرة .

ماجد نعمه